

الإيمان بالقدر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحقيق الإيمان بالقدر

بقلم
د. أمير الحداد

الطبعة الأولى
٢٠١٣ هـ / ١٤٣٤ م

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٠٢)

(آل عمران).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (١)

(النساء).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (٧٠) ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (٧١) (الأحزاب).

روى ابن عمر أن جبريل عليه السلام قال للنبي صلى: «ما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، فقال جبريل: صدقت». رواه مسلم

وقد أخرج الطبراني من حديث ابن مسعود رفعه «إذا ذكر أصحابي فأمسكوا، وإذا ذكر النجوم فأمسكوا، وإذا ذكر القدر فأمسكوا». قال الألباني في «السلسلة الصحيحة» ٤٢/١: روي من حديث ابن مسعود، وثوبان، وابن عمر، وطاووس، مرسلًا، وكلها ضعيفة الأسانيد، ولكن بعضها يشد بعضها.

(وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: تماروا بين يدي النبي ﷺ في القدر

فكره كراهية شديدة حتى كأنما فقئ في وجهه حب الرمان، فقال: فيم أنتم! قالوا تمارينا في القدر يا رسول الله فقال: كل شيء بقدر حتى العجز والكيس). السلسلة الصحيحة

والظاهر والله أعلم أن المراد النهي عن التكلم بالأدلة العقلية المتعلقة بمسألة القدر بعد الإيمان بأنبائه لأن انتهاءها عند أرباب العلم والعمل. وقال أبو المظفر ابن السمعاني: سبيل معرفة هذا الباب التوقيف من الكتاب والسنة دون محض القياس والعقل، فمن عدل عن التوقيف فيه ضل وتاه في بحار الحيرة ولم يبلغ شفاء العين ولا ما يطمئن به القلب. «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه» (السلسلة الصحيحة). وقد جاء مفرقاً بأحاديث منها: عن عبادة بن الصامت: «ولن تؤمن بالله حتى تؤمن بالقدر خيره وشره وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك سمعت رسول الله ﷺ يقول: القدر على هذا من مات على غير هذا دخل النار». (وهو حديث صحيح).

وعن أبي بن كعب وعبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت مرفوعاً في حديث لهم في القدر: «ولو أنفقت مثل أحد ذهباً في سبيل الله ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر وتعلم أن ما أصابك...» الحديث وفيه: «ولو مت على غير هذا لدخلت النار» (وإسناده صحيح).

وقال بلال بن أبي بردة لمحمد بن واسع: ما تقول في القضاء والقدر؟ فقال أيها الأمير، إن الله لا يسأل عباده يوم القيامة عن قضائه وقدره وإنما يسألهم عن أعمالهم.

عن يزيد (وهو ابن هرمز) وعبدالرحمن الأعرج قالاً سمعنا أبا هريرة قال: رسول الله ﷺ: «احتج آدم وموسى عليهما السلام عند ربهما فحج آدم موسى قال موسى أنت آدم الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وأسكنك في جنته ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض؟ فقال آدم أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء وقربك نجياً فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق؟ قال موسى بأربعين عاماً قال آدم فهل وجدت فيها ﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾ (طه: ١٢١).

قال نعم قال أفتلومني على أن عملت عملاً كتبه الله على أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ قال رسول الله ﷺ فحج آدم موسى» مسلم.

إن الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان من أنكره كفر وخرج من ملة الإسلام.. لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً.. وكما في باقي أركان الإيمان يجب على من أراد النجاة يوم القيامة أن يلتزم آيات الله البينات فيرجع المتشابه منها إلى المحكم ويلتزم أحاديث النبي ﷺ الصحيحة ويفهمها كما فهمها الصحابة رضوان الله عليهم وهم الذين تعلموا من رسول الله ﷺ فلم يشكل عليهم أي ركن من أركان الإيمان فكانوا خير أمة أخرجت للناس إيماناً وعملاً وفهماً لدين الله عز وجل.

وفي هذا الجهد المتواضع يسعى الكاتب أن يضع بين يدي كل مسلم بياناً بسيطاً شاملاً لقضايا (الإيمان بالقدر) بأسلوب حوارى بسيط ملتزماً فهم السلف الصالح لآيات الكتاب... وللأحاديث الصحيحة

الثابتة عن رسول الله ﷺ والمرجو من كل من يقرأ هذا الكتاب أن يدعو
لكاتبه بالمغفرة والثبات على الدين، وإن وجد خطأ فلا يبخل أن يوصله
إلى الكاتب عن طريق موقعه على الشبكة العنكبوتية ليصححه في الموقع
ثم في الطبعة القادمة.. إن شاء الله.

أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يبارك بهذا العمل وأن يجعله
خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفع به كاتبه بعد موته.

والحمد لله رب العالمين.

د. أمير الحداد

الكويت - ١٤٣٣هـ - ٢٠١٣م

www.prof-alhadad.com

أركان الإيمان بالقدر

هاتفني معرّفاً نفسه أنه من قناة المعالي.. عرض علي إعداد برنامج عن (القدر) موزعاً على ثلاث عشرة حلقة، قبلت الدعوة.. باشرت إعداد المادة من آيات وأحاديث.

- الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان، في حديث جبريل عليه السلام: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره» (مسلم).

- وكيف يمكن تحقيق هذا الركن؟

- هذا الركن يتحقق بأمر أربعة:

أولاً: العلم، ثانياً: الكتابة، ثالثاً: المشيئة، رابعاً: الخلق والتكوين، ولكل بند من هذه البنود تفصيل، وقبل أن ندخل في التفصيل نقول باختصار: لو أن المرء إلّٰتزم بعض القواعد البسيطة لما ضلّ في قضية القدر بإذن الله تعالى.

- ماذا تعني بهذه القواعد البسيطة؟

- أولاً: لا تعارض بين آيات الكتاب العزيز، كلها متناسقة، وكلها تحمل معاني صحيحة، وإذا بدت في ظاهرها خلاف ذلك؛ فالمرء يتهم فهمه ولا يظن في آيات القرآن تعارضاً.

وكذلك أحاديث النبي ﷺ الصحيحة لا تعارض بينهما، ولا تعارض بين الأحاديث الصحيحة وآيات الكتاب العزيز كلها من عند الحكيم

العليم؛ فلو أن المرء إتزم هذه القواعد البسيطة؛ فإنه لا يقع فيما يخالف العقيدة الصحيحة في باب القدر.

كنت وصاحبي نتحاور بينما كنت أبحث في «المكتبة الشاملة» عن الآيات المتعلقة بالقدر.

- وماذا عن بنود تحقيق الإيمان بالقدر؟

- أولاً: العلم، ذلك أن الله عَلِمَ كل شيء قبل خلق أي شيء، فهو سبحانه وتعالى (العليم)، وهذه الصفة ملازمة لا تنفصل ولا تطرأ على الله عز وجل، أي: إنه سبحانه وتعالى لا يطرأ علمه بشيء بعد أن كان لا يعلمه - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - وذلك أن علمه كامل، يليق بذاته عز وجل، ويذكر الله لنا شيئاً من ذلك في كتابه: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥١﴾﴾ (الأنعام)، فهو سبحانه يعلم كل أفعال العباد قبل أن يولدوا، ويعلم كل صغيرة وكبيرة، وظاهرة وباطنة ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (٦٩) (القصص).

ثانياً: الكتابة: لقد أمر الله تعالى (القلم) أن يكتب العلم المتعلق بالخلائق في اللوح المحفوظ، فعن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال: اكتب، فجرى بما هو كائن إلى الأبد» (صحيح الترمذي)؛ فهذا الذي كُتب هو علم الله.

أما المشيئة: فهي أنه لا يقع في الكون شيء دون مشيئة الله، بل لا

بد أن يأذن الله للشيء حتى يقع وإن كان هذا الشيء مما لا يحبه الله، فهو سبحانه مالك الكون كله ولا يقع شيء في ملكه دون إذنه، ولو شاء سبحانه لما وقع شيء لا يحبه في ملكه، ولكنه عز وجل سمح لكل شيء أن يقع حتى يحاسب الجميع على أعمالهم بالعدل والفضل «فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه» (صحيح مسلم).

- ثم الرابعة: أن الله خلق كل شيء، والعباد يختارون من الأفعال ما يريدون من خير أو شر، فالله خلق إبليس لحكمة أرادها، وخلق الشياطين، وخلق الملائكة، وكل شيء - عدا الله عز وجل - فهو مخلوق والمرء يختار من مخلوقات الله ما يشاء من خير أو شر، وعلى اختياره يحاسب يوم القيامة.

المغفرة والعذاب

- لا بد أن نتذكر دائماً عندما نريد مناقشة أية قضية أنه لا تعارض بين آيات الكتاب العزيز، ولا بين الأحاديث الصحيحة، ولا بين الآيات والأحاديث الصحيحة.

- وهل هناك من لا يقرّ بهذه القاعدة، بل هذا الأصل البدهي؟! قالها صاحبي مستغرباً.

- نعم.. وإن لم يقولوها بلسان المقال، وبعد هذه التذكرة تعال نقرأ بعض الآيات من كتاب الله تعالى، يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ تَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَعْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (المائدة)، ويقول عز وجل: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ (العنكبوت).

يحتج بعض الناس بهاتين الآيتين ليقولوا: لماذا العمل إذا كان الله يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء؟ والرد بكل بساطة نقول لهم: اقرؤوا جميع الآيات التي تبين من يعذبهم الله، مثلاً: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) (الانفطار)، ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٥٠) (الأعراف)، ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلُّهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى

﴿الرعد﴾ (٣٥) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾
 ﴿الأحزاب﴾ (٦٤) ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ (الزمر: ٧١)،
 ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ (الزمر: ٧٣)، ﴿تِلْكَ
 الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ (٦٣) ﴿مريم﴾، ﴿وَأُزِلَّتِ الْجَنَّةُ لِلْمُنْقِينَ
 ٩٠﴾ ﴿وَبُرَزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ (٩١) ﴿الشعراء﴾، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا
 وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ
 الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ (٤٠) ﴿الأعراف﴾.

وآيات أخرى كثيرة تبين أن مآل الكافرين النار وأن الله يعذب
 الكافرين، والمجرمين، والظالمين، وأن مآل المؤمنين الجنة، وأن الله يغفر
 للمتقين والمخبتين والصادقين والمستغفرين، فإذا جمعنا هذه الآيات بتلك
 التي تبين أن الله ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ (١١)
 اتضح المعنى.

كان صاحبي منصتاً.. متابعاً يهز رأسه موافقاً:

- أكمل الاستنتاج والبيان.

- أقول: يتضح المعنى بأن العذاب لمن يستحقه من الناس نتيجة
 كفره وظلمه، والرحمة لمن يستحقها من الناس جزاء طاعته وتقواه، وكل
 ذلك بمشيئة الله، أي إن العاصي لا يعصي رغماً عن الله، بل أذن الله
 للمعصية أن تقع، وأذن الله للظلم أن يقع مع أنه حرمه ونهى عنه ولا
 يحبه، ولكنه سمح بوقوعه في ملكه ممن يريد أن يرتكبه من خلقه، ولو

شاء عز وجل لمنعه، ولكن حتى يعطي كل أحد حسب عمله سمح لأهل المعصية أن يرتكبوا معاصيهم، وأما أهل التقوى والصالح الذين يريدون رضا الله ويحرصون على نيل مغفرته وعفوه؛ فإنه سبحانه يتفضل عليهم بزيادة توفيق وسداد؛ فيزدادوا في طاعة الله عز وجل، وينالوا الجنة لا مقابل أعمالهم، بل تفضلاً من الله؛ ذلك أن أعمال العبد تقصر عن أن تدخله الجنة، وكل ذلك مرة أخرى بمشيئة الله، وهذا معنى: ﴿يعذب من يشاء ويرحم من يشاء﴾ وفق أعمالهم، لا عبثاً ولا بعشوائية، تعالى سبحانه عن ذلك.

الهداية

- تعال نذكر آيات أخرى لبيان جانب آخر من القدر، يقول عز وجل: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٤٢) (البقرة)، ويقول سبحانه: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٤٦) (النور)، ويقول: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ (١٦) (الحج)، ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ (٣٦) (البقرة)، ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْابَ﴾ (٢٧) (الرعد)، وكذلك: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٨) (فاطر)، ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ (٣١) (المدثر)، هذه بعض الآيات وهناك غيرها.

- وما البيان في هذه الآيات؟

- يقول أصحاب الأهواء: الهداية بيد الله، فلو هادني الله إلى الصلاة لصليت؛ لأن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء!!

- رغم أنني لا أعرف الإجابة الناجعة عن هذه الشبهة، إلا أنني أعلم أنه لا ينبغي لمسلم أن ينسب إلى الله أنه أضله، ولذلك هو لا يأتي بالطاعات ويرتكب المحرمات.

كنت وصاحبي نتابع نقاشنا حول قضايا القدر ، ويعجبني فيه رغبته في تعلم القضايا الشرعية، رغم أنه نال درجة الأستاذية في علم الأحياء.

- صدقت يا (أبا عبد الله) إذا عجز المرء عن فهم بعض الأمور فلا ينبغي أن ينسب إلى الله أي نقص أو عيب، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

- لنرجع إلى معاني الآيات.

- هذه الآيات تبين أن الله ﴿يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾، وتعال نقرأ الآيات التي تبين هذه الآيات، يقول عز وجل: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ (البقرة)، ويقول سبحانه: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ (غافر)، ويقول: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ (٧٤) (غافر)، وبالمقابل يقول عز وجل: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن أَنَابَ﴾ (٢٧) (الرعد)، ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (١٣٣) (طه)، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن هُوَ كَذِبٌ كَفَّارٌ﴾ (٢) (الزمر)، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ (٢٨) (غافر)، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٥٨) (البقرة)، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٦٤) (البقرة)، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (١٠٨) (المائدة).

فالله عز وجل لا يهدي الفاسقين والمسرفين والكاذبين والظالمين والكافرين والمرتابين، بمعنى أن هؤلاء القوم اختاروا هذه السبل البعيدة

عن هدى الله، وأعرضوا عن أوامر الله، فتركهم الله لما اختاروا، وعلى الجانب الآخر يهدي الله عز وجل ﴿مَنْ أُنَابَ﴾، ويهدي من اتبع رضوانه، أي: اجتهد في عمل ما يرضي الله عز وجل، ويهدي من اتبع الهدى الذي أنزله الله، بمعنى أن هؤلاء القوم اجتهدوا في طاعة الله ونيل رضوانه فوفقهم الله بزيادة ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَّهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ (محمد).

وبهذا المعنى نفهم «يهدي من يشاء ويضل من يشاء» أن الذين ضلوا وكفروا وفسقوا وسلكوا درب الضلال، لم يفعلوا ذلك رغماً عن الله عز وجل، بل تركهم الله يفعلون هذه الأمور ويرتكبون هذه الكبائر (حتى الكفر) مع أنه عز وجل لا يحبها ولا يرضاها، ولكنه سبحانه أذن بوقوعها، وذلك حتى يجازيهم بالعدل يوم القيامة، والفائزون اجتهدوا في طاعة الله، فأذن الله لهم بطاعته ووفقهم إلى مرضاته وزادهم من فضله، حتى يجازيهم بأفضل ما عملوا يوم القيامة، فالهداية والإضلال ليس عشوائياً ولا قهراً ورغماً على الله، بل بإذنه سبحانه، وإن كان عز وجل يبيغض الكفر والظلم والفسوق، ولكنه سمح بوقوعه في ملكه لمن أراد ذلك.

الهداية (٢)

- ما زلنا نؤكد على أصل عظيم وبدهي.. أنه لا تعارض بين آيات الله عز وجل، ولا بين أحاديث النبي ﷺ، ولا بين الأحاديث الصحيحة وآيات الكتاب العزيز؛ فإنها جميعاً بوحى من الله سبحانه وتعالى.

وتعال نقرأ بعض الآيات التي يظن بعض الناس أنها متعارضة، يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (القصص)، ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرٍ﴾ (النحل)، ويقول عز من قائل: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى).

ففي الآيتين ينفي الله عز وجل قدرة النبي ﷺ على هداية الناس، وفي الآية الأخيرة يثبتها ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي﴾ كيف نفهم هذه الآيات؟! كانت خاطرة قصيرة لم أكن قد أعددت لها، طلب إليَّ رواد الديوان إلقاءها قبل تناول العشاء.

- الجواب المنطقي الوحيد لهذا السؤال أن معنى (الهداية) مختلف. كان المتحدث (بوفيسل) وهو شاب حديث التخرج، بدأ العمل منذ أقل من عام.

- أحسنت يا (أبا فيصل)، بالفعل معنى (تهدى) مختلف في الموضعين، وكلا المعنيين صحيح في اللغة العربية التي أنزل بها القرآن.. (هدى) تأتي

بمعنى (وفق إلى قبول الحق واتباعه) لا مجرد معرفته، ومن هذا المعنى قولنا في كل صلاة: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة)، أي: وفقنا لقبوله والثبات عليه، و(هدى) تأتي بمعنى (بين)، و(أرشد)، و(أوضح)؛ فالنبي ﷺ (يهدي) بمعنى (يبين)، و(يرشد)، ولكنه لا يملك أن يقبل الناس الحق، فهذه لله عز وجل وحده بأسباب من عند العبد؛ فالذي يبذل أسباب الهداية يوفقه الله لنيل الهداية، والذي يعرض عن أسباب الهداية يتركه الله عز وجل لما أراد، وفي معنى الإرشاد أيضاً ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ (٢) من قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ﴿ (آل عمران)، ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ (المائدة: ٤٤)، ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ (٢) (الإسراء)، ﴿هَذَا هُدًى وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ (١١) (الجاثية).

فالهداية بمعنى (التوفيق لقبول الحق والعمل به) لا يملكها إلا الله ويعطيها من يستحقها بالإجابة والتقوى والعمل الصالح والدعاء، أما الهداية بمعنى البيان والإرشاد، فهي في كتب الله تعالى، وهي مهمة الأنبياء جميعاً والدعاة بعدهم، وإن كان المرء يرجو أن من يدعوهم يستجيبون له، إلا أن الله أعلم بمن يستحق الهداية ويريدها ومن لا يريد الهداية ولا يعمل لأجلها؛ فهو سبحانه ختم آية الهداية بقوله عز وجل: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (٥٦) (القصص)، أي الذين يبذلون أسباب الهداية القلبية والعملية هؤلاء ينالونها بمشيئة الله.

عمل الإنسان

«لا تعارض بين آيات الكتاب العزيز.. ولا تعارض بين أحاديث النبي ﷺ ولا تعارض بين القرآن والأحاديث الصحيحة»

- الله خلق كل شيء... وخلقَه إذا أراد شيئاً أن يقول له (كن فيكون)...
هذا هو الأصل ولا نستثني إلا ما ثبت بآية أو بالحديث الصحيح استثناؤه...
والعبد يختار من الأعمال ما يريد.. ويحاسب على اختياره.

- هل يمكن أن تذكر آيات الكتاب العزيز في بيان عمل الإنسان.

- نعم... لقد نسب الله العمل إلى الإنسان في مواضع كثيرة
من كتابه العزيز.. ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ
يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٨) (الزلزلة).. ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمْ
الْجَنَّةَ أَوْ رِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٤٣) (الأعراف)، ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ
إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٤٠) (فصلت)، ﴿وَقَالَتْ أُولَهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا
كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ (٣٩)
(الأعراف)، ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا
كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ (٥٢) (يونس).. ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ
(٢٤)﴾ (الزمر).. ففي هذه الآيات وغيرها... نسب الله عز وجل العمل
إلى الإنسان وكذلك الكسب... فهو الذي عمل... وهو الذي اختار وهو
الذي سعى... وذلك أن الله خلق فيه القدرة على الطاعة... وعلى
المعصية... ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (١٠) (البلد)... ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا

شَاكِراً وَإِمَاماً كَفُوراً ﴿٣﴾ (الإنسان)، وهذه القدرة التي خلقها الله في الإنسان... هي التي جعلته أهلاً للتكليف... بمعنى: يأتيه الأمر من الله... من الأمور الشرعية... وهو له القدرة على القبول أو الرد... على التطبيق أو الامتناع... هذا في الأوامر الشرعية... وكذلك في المناهي الشرعية... له القدرة على الطاعة... والمعصية... واقتراض المعصية أو تجنبها... فهو قادر على أداء الصلاة... أو الإعراض عنها... وكذلك قادر على شرب الخمر... أو تجنبها... والمرء يختار من هذه الأفعال ما يريد... فإن هو أقبل على الطاعات يسّر الله له الأمر... وإن أقبل على المعصية... تركه وما يريد... فالعبد هو الذي يختار... والرب عز وجل ييسر أو يخلي بينه وبين ما يريد... والملائكة تكتب ما يفعله العبد: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ (الانفطار) ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ (الزخرف) ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾ (يونس)... كان صاحبي يستمع باهتمام... تركته ليعلق.

- مع أني أعرف كل هذه الأمور إلا أن ترتيبها وبيانها بهذه الطريقة جعلها أكثر وضوحاً في ذهني... تابع ما تريد.

- والأحاديث الصحيحة... منسجمة مع آيات الكتاب العزيز... في وصف الإنسان بأنه هو الذي يعمل... وهو الذي يكسب... ففي الحديث القدسي: «يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» مسلم... وفي

الحديث الآخر «إذا همَّ عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه، فإن عملها فآكتبوها سيئة، وإذا همَّ بحسنة فلم يعملها فآكتبوها حسنة، فإن عملها فآكتبوها عشرًا» مسلم... قاطعني:

- طالما ذكرت الأحاديث... ما القول في الحديث الصحيح: «إن الله عز وجل خلق آدم، ثم أخذ الخلق من ظهره وقال: هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي، وهؤلاء إلى النار ولا أبالي...» السلسلة الصحيحة.

- وتتمة الحديث؟!

- لا أعرفها.

- تتمته: «فقال قائل: يا رسول الله فعلى ماذا نعمل؟ قال: على مواقع القدر»... هذا الحديث يضاف إلى الآيات والأحاديث السابقة أن الإنسان يعمل الخير أو الشر... ويكسب الحسنات أو السيئات بعمله والملائكة يكتبون ذلك... وللإنسان القدرة على الطاعة وعلى المعصية... وحسابه يوم القيامة على عمله... الذي عمله في الدنيا وسجلته الملائكة... وهذا هو الكتاب الذي يعرض يوم القيامة: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ۝١٣﴾ أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤﴾ (الإسراء) وحيث أن علم الله كامل فإنه علم أن هذا الإنسان سيعمل بعمل أهل النار... وسيدخلها بعمله... وأن ذاك الإنسان سيعمل بعمل أهل الجنة... وسيدخلها بعمله... فالنار عدل من الله... والجنة فضل من الله.

- والحديث الآخر؟!

لنؤجل هذا الحديث إلى لقائنا القادم إن شاء الله.

عمل الإنسان (٢)

لا تعارض بين آيات الله، ولا بين أحاديث النبي ﷺ، ولا بين آيات الكتاب العزيز والأحاديث الصحيحة.

تابعت حوارى مع صاحبي .. سألتني:

- لعل أكثر حديث يسبب لي «عدم فهم» في القضاء والقدر، هو: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها»، ولا أعلم إن كان هذا الحديث صحيحاً أم لا؟!

- بل الحديث متفق عليه، وتماحه:

عن عبدالله بن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها».

وهو حديث يجمع أصول الإيمان بالقدر التي بينها في بداية حوارنا، نلخصها بأنها: العلم والكتابة والمشية والخلق، ولكن انظر في مفردات

الحديث: «فيعمل بعمل أهل النار» أي إن العبد هو الذي اختار أن يعمل هذا العمل المؤدي إلى النار، وعلم الله عز وجل ذلك قبل خلقه، فكتبه، ولكن العبد هو الذي اختار وهو الذي عمل.

قاطعني:

- ولكن الحديث يوحي بأن هذا العبد لم يكن له خيار إلا أن يعمل بعمل أهل النار؛ لأنه سبق أن كُتب عليه ذلك.

- كلا.. الحديث لا يوحي بهذا، بل يبين أمرين منفصلين: ما كتبه الله، وما يعملُه العبد، والعبد لا يعلم ما كُتب له، ولكنه اختار بمحض إرادته ما يريد أن يعمل ووقع هذا العبد في هذه المعصية؛ لأنه لم يتخذ أسباب الهداية.

- كيف ذاك؟!

- هذا العبد الذي كان: «يعمل بعمل أهل الجنة» أصابه الغرور بصلاحه، ولم يكن يدعو الله أن يشبته على الحق كما بين لنا الرسول ﷺ في الحديث: «كان أكثر دعائه: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»، فقيل له: أتخاف علينا يا رسول الله؟ قال ﷺ: «نعم.. إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين إصبعين من أصابع الله؛ فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ» (حسنه الألباني).

عن شهر بن حوشب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قلت لأُم سلمة: يا أُم المؤمنين ما كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندكِ؟ قالت: كان أكثر دعائه: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، قالت: فقلت يا رسول الله: ما أكثر دعائك

يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك؟ قال: يا أم سلمة: إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله، فمن شاء أقام، ومن شاء أزاغ، فتلا معاذ: ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾. (صححه الألباني).

فالمؤمن يأتي بالطاعات ويجتنب المعاصي، ويدعو الله أن يثبته على الطاعة دائماً ويخلص في دعائه ولا يغتر بعبادته، بل حاله كما وصف الله عباده المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ (المؤمنون)، هذا يثبت الله عز وجل على الهدى؛ لأنه اتخذ أسباب الثبات: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (إبراهيم)، ولا ينبغي لعبد أن يقول: إن الله هو الذي أضلني؛ لأن هذا منطوق إبليس: ﴿بِمَا أَغْوَيْنَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الحجر)، أما آدم عندما وقع في الذنب قال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف)، وهكذا العبد إذا وفق إلى الخير حمد الله وأثنى عليه، وسأله الثبات والمزيد من هذا الخير، وإذا وقع في الذنب لام نفسه واستغفر وأقرّ بظلمه لنفسه؛ وبهذا نجمع الآيات والأحاديث التي قد تبدو متعارضة في ظاهرها، وذلك لالتزامنا وبقيننا بأنه لا تعارض بين آيات الله ولا بين أحاديث النبي ﷺ، وكلما جاءك هذا الشعور اتهم فهمك وابحث عن المعنى الصحيح.

عمل الإنسان (٣)

كتب الله لي عمرة لم أخطط لها مسبقاً.. حين اتصل بي صاحبي وأبدى رغبته في صحبتي له.. لم أتردد.. قضينا يومين في مكة ومثلهما في المدينة التي لم أزرها منذ أكثر من عشر سنوات..

- أينما تقرأ في كتاب الله تجد آية توضح شيئاً من قضايا القدر.. كنت وصاحبي في مسجد النبي ﷺ بين العشاءين.. وكنا قد سلمنا على النبي ﷺ بعد الصلاة مباشرة.. وأخذنا مجلساً هادئاً ننتظر الصلاة الأخيرة..

فتح صاحبي المصحف... قرأ:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَكَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ ۖ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (الزمر)

- في هذه الآية.. ينسب الله الاهتداء للعبد.. ﴿فَمَنِ اهْتَكَىٰ﴾.. وكذلك الضلال.. ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾.. وذلك أن العبد يختار بإرادته ما يريد.. فالذي يختار طريق الهداية ويبذل أسبابها ينالها.. فضلاً من الله.. ومن يختار طريق الغواية ويسير فيها يتركه الله.. عدلاً منه عز وجل.. والأول يثاب على طاعته.. والآخر يعاقب على معصيته.. في الآخرة، أما في الدنيا... فلا جزاء ولا عقاب.. وإنما ابتلاء..

- هل نستطيع أن نجزم بأن من أراد الهداية نالها؟

- نعم.. إذا بذل أسبابها الصحيحة: عمل الطاعات.. ترك السيئات..

الإخلاص لله .. ودعاء الله .. ومن أخلّ بشيء من هذه الشروط حرمه الله «الهداية» .. وإن كان فيما يبدو «مهتديا» .. وبهذا نفهم حديث النبي ﷺ : «إن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى (ما) يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة .. وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار» متفق عليه .

قاطعني ..

- أريد شرحاً لهذا الحديث ولا سيما «فيسبق عليه الكتاب»؟

- بفضل الله لقد اطلعت على شرح ابن حجر والنووي للصحيحين قبل فترة وجيزة .. نعلم ابتداءً أن ما كتبه الله في اللوح المحفوظ إنما هو علمه سبحانه وتعالى ... وما يقع في الكون يتفق مع ما كتبه الله لكمال علمه سبحانه وتعالى .. أما الأعمال: «الحسنات والسيئات» فلا تسجل على العبد إلا بعد أن يعملها .. وهنا تكون المحاسبة على ما يعملها العبد .. لا ما كتبه الله .. وفي شرح الحديث يقول النووي .. «والمراد بهذا الحديث أن هذا قد يقع في نادر من الناس لا أنه الغالب فيهم» وفي رواية .. «فيما يبدو للناس» .. وذلك أن أحداً لا ينبغي أن يحكم على أحد .. فيقول: «والله لا يغفر الله لفلان» .. لكثرة معصيته .. أو يقول «فلان من أهل الجنة» لكثرة طاعاته .. فإن أحداً لا يعلم خاتمة أي أحد .. وكذلك هذا الحديث يحذر الإنسان من سوء الخاتمة فلا يركن إلى صالح أعماله «ويضمن» الجنة بل يتأسى برسول الله ﷺ ويكثر من الدعاء «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» .. «السلسلة الصحيحة» .. أما قوله ﷺ

: «فيسبق عليه الكتاب».. أي سبق في علم الله ما سيفعله هذا الإنسان ولكنه هو الذي عمل بعمل أهل الجنة.. أو عمل بعمل أهل النار.. فقال جزاء عمله.. لا أن الله كتب عليه بمعنى أرغمه على عمل أهل النار.. ولكن نبين أن هذا قد يحصل في القليل النادر من الناس لخلل في أسباب الهداية.. كالغرور أو العجب أو الاتكال إلى الأعمال الصالحة وعدم دعاء الله عز وجل.. فالهداية فضل من الله والضلال عدل من الله، لمن اختار هذه الطريق..

أفعال العباد

لا تعارض بين آيات الكتاب العزيز ولا بين أحاديث النبي ﷺ ولا بين حديث صحيح وآية من كتاب الله عز وجل.

- لو إلتزم المرء هذه القاعدة ولم يأخذ آية بمعزل عن بقية آيات الكتاب، ولا حديثاً بمعزل عن بقية الآيات والأحاديث التي تبين ذات القضية لتوصل المرء إلى الحق في مسائل القدر بإذن الله عز وجل.

ومن هذه المسائل أفعال الخلق.

- كيف نستطيع أن نفهم هذه المسألة؟

- لو تتبعنا آيات الكتاب العزيز لوجدنا أن العبد يعمل العمل خيراً كان أم شراً بإرادته، ويكون هو الفاعل ويحاسب على فعله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾^(٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى^(٦) فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى^(٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى^(٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى^(٩) فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى^(١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى^(١١) ﴿ (الليل).

قاطعني:

- كيف يبسر الله عز وجل العبد لليسرى؟ وكيف يبسر له للعسرى؟

- أما التوفيق لعمل الصالحات فيبدأ من العبد ثم يوفقه الله لعمل آخر ما دام العبد مقبلاً بإخلاص على الطاعات كما في الحديث الذي في البخاري: «إذا تقرب العبد مني شبراً تقربت منه ذراعاً، وإذا تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً».

وفي صحيح مسلم: «أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني، إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ هم خير منهم، وإذا تقرب مني شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت منه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»، فإن العبد المقبل على الله بصدق وإخلاص ييسر له الله عز وجل الطاعة بعد الطاعة، أما العبد المعرض عن الله عز وجل فإن الله يتركه في ضلاله وغيه، وذلك أنه هو الذي اختار هذا الدرب وسار فيه، وهذا بالطبع مع فطرة الإنسان على الخضوع لله، وبيان طريق الحق وترغيبه فيه، وبيان طريق الضلالة والترهيب منه، وتأكيد المآل لمن آمن ولمن ضلّ، وإرسال الرسل وإنزال الكتب التي فصلت كل شيء، وجميع الآيات والأحاديث التي يظن بعضهم من خلالها أن العبد «مجبّر» على فعل شيء تُحمل على هذا المعنى، ولا تُقرأ بمعزل عن هذه الآيات والأحاديث «فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه» (مسلم).

- وماذا لو أصر العبد على قوله: «لو شاء الله أن أهتدي لاهتديت»؟!

- هذه العبارة لن تنجيه بين يدي الله عز وجل، ويمكن الرد عليه بأمور عدة، منها: نقول له: لا تسع في طلب الرزق، فلو شاء الله أن يرزقك فسيأتيك رزقك وأنت نائم على فراشك؛ لحديث النبي ﷺ: «يا أيها الناس، إن الغنى ليس عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس، وإن الله عز وجل يؤتي عبده ما كتب له من الرزق؛ فأجملوا في الطلب، خذوا ما حل ودعوا ما حرم» (صحيح الترغيب والترهيب)، وكذلك حديث الخلق: «ثم يبعث إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات، فيقول: اكتب عمله

وأجله ورزقه وشقي أو سعيد».. فالرزق قد كتب فلماذا تسعى وتكدح في طلب رزقك؟! ابق في سريرك وسيأتيك!!
وهذا لا يقوله عاقل، وكذلك في الهداية.

ثم هذه المقولة ليست جديدة، بل قالها المشركون من قبل: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ (الأنعام)، وكذلك في سورة النحل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (النحل).

إن الاحتجاج بالقدر على التقصير في طاعة الله أو التمادي في معصية الله ما هي إلا حج كاذبة يزينها العبد لنفسه أو يزينها الشيطان له... فإذا وقف العبد بين يدي الله للحساب يوم القيامة... لم ينفعه إلا عمله.. كما في الحديث المتفق عليه عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما منكم من أحد إلا وسيكلمه الله يوم القيامة ليس بين الله وبينه ترجمان. ثم ينظر فلا يرى شيئاً قدامه ثم ينظر بين يديه فتستقبله النار... فاتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة»

الأخذ بالأسباب

- إذا تصفحنا المصحف لتندبر الآيات المتعلقة بالقدر بعد القواعد التي ذكرناها فلن نجد صعوبة في الوصول إلى الفهم الصحيح.. وما أجمل مقولة عمر عندما خرج إلى الشام فأخبره أمراء الأجناد أن الوباء قد وقع في الشام.. فقرر الرجوع، فقال له أبو عبيدة: «أفراراً من قدر الله؟!» فقال عمر: «لو غيرك قالها يا أبا عبيدة! نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله..» ثم بين له الفهم الصحيح للقدر: «أرأيت لو كان لك إبل هبطت واديا له عدوتان، إحداهما خصبة والأخرى جدبة، أليس إن رعيت في الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت في الجدبة رعيتها بقدر الله؟».. متفق عليه.

أعجب صاحبي بمقولة عمر رضي الله عنه فرددها:

- نفر من قدر الله إلى قدر الله.

- وبهذا نفهم جميع آيات القدر في كتاب الله.. اسمع قول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا ۖ﴾ (النساء)، ثم بعد ذلك بآيات قليلة يقول عز وجل: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ۚ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ۚ قُلْ كُلُّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ ۚ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ۖ﴾ (النساء).. وفي سورة التوبة: ﴿قُلْ لَّنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۖ﴾.

وفي الحديث عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يغني حذر من قدر، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، وإن البلاء لينزل فيتلقيه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة» حسنه الألباني.. وكلها أوامر صحيحة.. في الآية يأمر الله المؤمنين أن (يأخذوا حذرهم)، وفي الحديث يخبرهم الرسول ﷺ.. أنه «لا يغني حذر من قدر».. والتوفيق بينهما: أن العبد مأمور أن يأخذ بالأسباب المادية لجلب ما ينفعه ودفع ما يضره.. فإن وقع عليه ضرر يؤمن أن الله قدره عليه لحكمة.. ويسعى في دفع الضرر ويستعين بالدعاء أولاً وأخيراً فضلاً عن الأسباب المادية مع تعلق القلب دائماً بالله.. بأنه لا شيء ينفع ولا يضر إلا بإذن الله.. هكذا هي العقيدة الصحيحة فيما يصيب الإنسان من خير أو من شر.

علق صاحبي:

- هذه قضايا تحتاج إلى مِران ذهني وعملي..

- إذا تمسك المرء بالثواب التي ذكرناها ورجع إليها لا يضل في هذا الباب إن شاء الله.

- وماذا عن حديث التداوي؟

- تعني قول النبي ﷺ: «إن الله عز وجل لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء، إلا الهرم -وفي رواية إلا السام (الموت)- فعليكم بألبان البقر فإنها ترم من كل الشجر» السلسلة الصحيحة. وفي رواية... «وفي ألبان البقر شفاء من كل داء».. وقد تعالج النبي ﷺ وأمر بالتداوي.. فقال: «يا عباد الله تداووا؛ فإن الله لم ينزل داء إلا وأنزل له دواء».. صححه الألباني.

قاطعني.. نعم هذا الحديث الأخير.. ولا أعرف الأحاديث الأخرى التي ذكرت.

- هذا الحديث وغيره يبين العقيدة في القدر.. فالله خلق الداء والدواء وأمر عباده أن يأخذوا الدواء إذا أصابهم الداء.. وفي الحديث (عن ابن أبي خزيمة عن أبيه.. قال: سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله أرأيت رقى نسترقئها ودواء نتداوى به وتقى نتقيها، هل ترد من قدر الله شيئاً؟ قال: «هي من قدر الله») حسنه الألباني.

فالإيمان بالقدر.. إيمان بكمال علم الله وكتابته لهذا العلم، ويحفظ الإنسان من اللجوء إلى غير الله في سرائه وضرائه.. وليس القدر للاحتجاج على ارتكاب المعصية.. والعجز والكسل عن الطاعة.. أو عن طلب الرزق!.

القضاء

يقول الله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (البقرة)، ويقول سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (مريم)، ويقول عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (غافر).

- إن قضاء الله عز وجل نوعان: قضاء كوني، وقضاء شرعي، كما قلنا في مشيئة الله وإرادة الله عز وجل، فهناك إرادة كونية وإرادة شرعية، أما القضاء الكوني، فهو الذي لا رادَّ له ولا مانع لوقوعه، ولا يحاسب عليه الإنسان يوم القيامة، وإنما يقع في الكون أو على الإنسان اختباراً له، أو تمحيصاً أو تكفيراً لذنوبه: مولده، مماته، المصائب العامة، الكوارث التي يسمونها (طبيعية)، وهي دون شك بقضاء الله لحكمة علمها من علمها وجهلها الغافلون.

قاطعني:

- وهل ذكر الله القضاء الشرعي في كتابه؟!

- نعم... في قوله عز وجل: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا وَلَا نَهْرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (الإسراء)، فالله عز وجل أمر أمراً شرعياً تسع العبد اتباعه أو مخالفته، قضى ألا نعبد إلا إياه، ومن

الناس من يشرك بالله، وقضى أن نحسن إلى والدينا، ومن الناس من يعق والديه، وقال عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ (الأحزاب) ﴿٣٦﴾.

وأوامر الله الشرعية هناك من يتبعها، وهناك من يخالفها؛ فهذا من القضاء الشرعي وكلمة (قضاء) تحمل هذا المعنى وذاك، وكذلك (الإرادة) وهناك (إرادة كونية) واقعة لا محالة، ولا يستطيع أحد مخالفتها، وهناك إرادة شرعية يخالفها العصاة كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (النساء)، وقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ (النساء)، وقوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْعَةٌ أَنتُمْ بَعِثْتُمْ إِلَّا مَا تَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ (المائدة)، وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (المائدة) ﴿٦﴾.

فهذه إرادة شرعية، ويريد الله منا أن نتوب ليتوب علينا، ومن الناس من يتوب ومن الناس من لا يتوب، ويريد الله منا ألا نصيد ونحن محرمون، ويستطيع من شاء أن يعصي هذه الإرادة لأنها «إرادة شرعية» أي: «حكم شرعي» أو «أمر شرعي»، أما الإرادة الكونية والأمر الكوني

والقضاء الكوني؛ فلا أحد يستطيع الخروج عليه أو حتى تأخيره ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (الحج).

علق صاحبي على هذا الإسهاب:

- نعم.. حتى يفهم المرء هذه القضية يجب أن يتتبع جميع الآيات والأحاديث التي تتناول الأمر؛ فيتدبر الآيات التي تذكر (القضاء)، و(الإرادة)، و(الأمر) ويعلم أنه لا تناقض بين آيات الكتاب ولا أحاديث النبي ﷺ الصحيحة؛ فيخرج بالفهم الصحيح للقضاء، ففي الصحيح: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان» (البخاري)، وفي صحيح مسلم: «لا تنذروا فإن النذر لا يغني من القدر شيئاً وإنما يستخرج من البخيل».

فهذا القدر والقضاء الكوني لا مجال لرده، ولا حتى لتعطيله، هو الذي كتبه الله قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة.

- نعم.. ذلك أن الملائكة لا تعلم الغيب، ولا ما هو مكتوب في اللوح المحفوظ، حتى يظهره الله عز وجل لهم وينزل من تحت العرش إلى السماء فتعرفه الملائكة، ثم ينزل إلى الأرض حيث قدره الله عز وجل.

ولو شاء الله

- يقول عز وجل: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلَفُونَ﴾ (المائدة) .. ويقول سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأنعام) .. ويقول عز من قائل: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (الأنعام) .. ويقول سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس) .. ويقول: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَّيْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (النحل) .. ويقول: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتَسْتَلْنَ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (النحل)، وفي آية أخرى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (الشورى).

هذه الآيات تبين جانباً من الإيمان بالقدر. ولنتدبر آخر آيتين إذ يخبر الله عز وجل أنه لو شاء وأراد إرادة كونية لجعل جميع خلقه أمة واحدة مهتدين طائعين.. ولكنه عز وجل يهدي من يسلك طريق الهداية.. ويدخله في رحمته.. ويترك الظالم الذي يختار طريق الضلال، وسيبعث الجميع يوم القيامة ليسألوا عما كانوا يعملون في الدنيا ويجازون على ذلك... وهكذا نوفق بين المعاني التي وردت في هذه الآيات.

كنت وصاحبي في موعدنا الشهري الذي يصادف أول ثلاثاء من كل شهر ميلادي..

- ولكن بعض الناس يتمسك بأن الله: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.. عذراً إذا لم يرغب في أن يسلك طريق الهداية.

- هذا عُذر أقبح من ذنب.. أولاً: وصف الله بما لا يليق به.. «بهذا المعنى»، وثانياً: لن ينفعه هذا العذر بين يدي الله عز وجل.. وثالثاً: من ركن إلى هذا العذر لن يبحث عن الهداية.. ومن باب أولى لن يجدها.. باختصار.. كل أحد مسؤول عن عمله.. وسيقف بين يدي الله يوم القيامة: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) (الزلزلة).

- وماذا عن الآيات الأخرى؟!

- على الإجمال هذه الآيات تبين أن مشيئة الله نافذة.. لا يردّها شيء.. فلو أراد الله سبحانه أن يجعل الجميع مؤمنين مهتدين.. لكانوا كما شاء- ولو شاء أن يجعل الجميع أمة واحدة.. لكانوا كذلك.. ولكن حكمته سبحانه اقتضت أن يترك للناس حرية العمل والاختيار.. وأنزل لهم أنواعاً من الاختبارات.. ليتبينوا مواقعهم من الإيمان والتصديق وليزدادوا من الخيرات.. والحسنات.. وأريد أن أذكر آية واحدة من مجموع الآيات التي ذكرناها في البداية.. وهي: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٣٥) (الأنعام)، يخاطب بها الله عز وجل رسوله ﷺ ولكن المراد من وراءه.. فالرسول ﷺ لم يكن من الجاهلين...

ولكن من ظن أن الله يعجز عن هداية الناس جميعاً... فهو جاهل.. ومن ظن أن الله يجبر أحداً على الضلال فهو جاهل.. ومن ظن أنه يهتدي دون توفيق من الله فهو جاهل.. ومن ظن أنه يرتكب المعصية رغماً عن الله فهو جاهل.. إن الفاسق يرتكب المعصية بإرادته والله أذن للمعصية أن تقع في ملكه مع أنه سبحانه وتعالى لا يحبها ولا يرضاها.. والصالح يعمل الصالحات بتوفيق الله.. والله يحب ذلك، ويجزي عليها أضعافاً مضاعفة.

العمل سبيل النجاة

- لم يكن تحقيق الإيمان بالقدر مشكلة عند الصحابة، فقد فهموا المطلوب منهم بأحاديث بسيطة سمعوها من رسول الله ﷺ.

- هل لك أن تبين ذلك بأمثلة؟

كنت وصاحبي نتمشى حول مسجد النبي ﷺ ابتداء من فندقنا الواقع عند الزاوية الشمالية الشرقية للمسجد.

- لقد ضرب الرسول ﷺ لهم مثلاً في الحديث المتفق عليه، عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: «إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به».

وهذا شرح قول الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمَنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء).

فإن الله بعث الأنبياء جميعاً بالهدى، الذي هو البيان والإرشاد والحجة والبرهان وخاتمهم الرسول ﷺ بعثه بأعظم بيان وهو القرآن

العظيم، فمن الناس من قبل هذا الهدى وأقبل عليه مخلصاً وأراد أن يستزيد... إيماناً منه أن الهداية سبيل للنجاة بعد الموت، فهذا ييسر الله له درب الهداية ويزيده هدى.

ومن الناس من لم يهتم بهذا الأمر ولم يعتن به، ولم يرفع بذلك رأساً غفلة منه، أو ضعف إيمان، أو عدم يقين بما سيكون بعد الموت، فهذا تركه الله لما اختار.

قاطعني..

- وهل اختيار هذا وذاك بمحض إرادتهما؟ أم بتقدير الله؟

- كلا الأمرين معاً، هكذا فهم الصحابة الكلمات التي تلقوها من رسول الله ﷺ مباشرة، ففي البخاري أن رسول الله ﷺ كان في جنازة فأخذ شيئاً فجعل ينكت به الأرض، فقال: «ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة»، قالوا: يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خُلق له، أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فييسر لعمل أهل الشقاء»، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَانْفَكَّ ۖ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۖ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۖ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۖ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۖ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۖ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ۚ﴾ (الليل)، وفي رواية قالوا: إذا نجتهد.

ولاحظ - يا أبا عبد الله - أن التيسير للعمل من الله، أتى بعد العمل من العبد ﴿أَعْطَى وَانْفَكَّ ۖ﴾، ﴿فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۖ﴾، ﴿بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۖ﴾، ﴿فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۖ﴾، ثم قرأ الآيات في سبب نيل الجنة: ﴿وَتُودُوا أَنْ تُلَكُّمُ﴾

الْجَنَّةُ أَوْ رِثْمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ (الأعراف)، ﴿﴾ هُمْ دَارُ السَّلَامِ
عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٧﴾ (الأنعام)، ﴿﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا
أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ (السجدة)، ﴿﴾ أَمَّا الَّذِينَ
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾
(السجدة)، ﴿﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾
(الأحقاف).

فالقدر نالوها بأعمالهم، وسبق في علم الله ما هم عاملون فكتبه عز
وجل، وهذا معنى الحديث: «إن الله عز وجل خلق آدم ثم أخذ الخلق من
ظهره وقال: هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي، وهؤلاء إلى النار ولا أبالي، فقال
قائل: يا رسول الله فعلى ماذا نعمل؟ قال: على مواقع القدر» السلسلة
الصحيحة.

فالعبد لا يعلم الغيب ولا يعلم ماذا كتب له، ولن يحاسب على ما كتب،
بل سيحاسب على ما يعمل؛ ولذلك قال الصحابة: «إذا نجتهد»، أو «إذا
نجد في العمل»، وهذا هو المطلوب من العبد أن يعمل بطاعة الله لينال
الثواب من الله.

يدبر الأمر

«التدبير»: تنزيل الأمور في مراتبها وعلى أحكام عواقبها، وأيضاً.. إنه سبحانه وتعالى يقضي ويقدر حسب مقتضى الحكمة وهو النظر في أدبار الأمور وعواقبها..

وجاء «التدبير» في حق الله تعالى.. في مواضع من كتاب الله عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (يونس)، وفي قوله سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (يونس)، ويقول تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ (الرعد).

كنت وصاحبي في طريقنا إلى مبنى المحاكم.. لحضور جلسة في قضية بينه وبين بعض أقاربه:

- وماذا عن قوله سبحانه: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ (٥)؟

- هذه وردت في سورة النازعات حيث يقسم الله عز وجل ببعض ملائكته.. ومنها «المدبرات أمراً».. التي تباشر تدبير أمور الكون كما أراد

الله عز وجل وقضى... فالملائكة هي التي تتولى تنفيذ القضايا الكبرى كنفخ الروح وانتزاعها.. وسوق السحاب وإنزال المطر.. والزرع والرياح وكل ما يحتاجه الإنسان: ﴿لَهُ مُعَقِّبَتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ (الرعد) .. أي يحفظونه بأمر الله..

قاطعني:

- ألا توجد آية أن الله يدبر الأمور في يوم كان مقداره ألف سنة؟
- بلى في سورة السجدة: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (السجدة) .. والمعنى أن الأمر ينزل من السماء إلى الأرض في يوم واحد من أيامكم.. مع أن المسافة التي يقطعها تقدر بمسيرة ألف سنة، خمسمائة نزولاً ومثلها صعوداً.. وذلك أن المسافة بين السماء الدنيا والأرض مسيرة خمسمائة سنة.. وقيل إن الملائكة تقطع في يوم واحد ما يقطعه أحدكم في ألف سنة.. وقيل إن قضاء ألف سنة ينزل في يوم واحد.. وهكذا.. كل ألف سنة ينزل القضاء مرة واحدة.. والظاهر الأول وأن الملائكة تنزل بأمر الله فتدبر أمور الكون جميعاً.. فهي تنزل بالأوامر وتخرج بالأعمال.. كل ذلك في أقل من يوم.. كما أخبر الرسول ﷺ «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم كيف تركتم

عبادي فيقولون تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون» البخاري،
وإذا علم المؤمن أن الله هو الذي يدبر الأمر.. أي كل أمر.. في السماء
والأرض.. الرزق، الصحة، المرض، السعادة، الشقاء، الأبناء.... وغيرها
من أمور بني آدم... فإنه يطمئن.. لأن الذي يدبر الأمور هو الله عز
وجل... فإذا تيقن المؤمن من ذلك.. لم يحزن على ما فات ولم يجزع
بما يقع... ولم يخف مما سيأتي.

لا شيء يقع إلا بإذن الله

- من الآيات التي يجب تدبرها لاستكمال مسألة الإيمان بالقدر الآيات التي تبين أن لا شيء يقع إلا بإذن الله.

- هل لي بمزيد إيضاح؟

- نعم.. إن شاء الله.

- كنت وصاحبي نشرب قهوة الضحى في أحد الأماكن الهادئة قبالة شاطئ البحر، بعيداً عن صخب الشوارع وزحمة الأسواق.

- تدبر قول الله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (البقرة: ١٠٢)، وقوله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِنْتَا مُوَجَّلًا﴾ (آل عمران: ١٤٥)، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّحْمَنُ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ (يونس)، ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ (التغابن)، وقوله عز وجل: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣١﴾﴾ (آل عمران).

هذه الآيات وغيرها تبين أن لا شيء: طاعة، معصية، مصيبة، فرح، موت، عزة، ذل، نصر، هزيمة.. إلخ، لا شيء يقع إلا بإذن الله، وما أذن الله به أن يقع في ملكه، وكل شيء ملكه، قد يحبه وقد يبغضه، ولكنه سبحانه أذن له أن يقع.

- هل أستطيع أن أقول - والله المثل الأعلى - ولكن تقريباً للمعنى:

إِنْ مَلِكًا أَدْنَىٰ مَنْ فِي قَصْرِه أَنْ يَفْعَلَ مَا شَاءَ، سَوَاءٌ وَافَقَ مَا يَحِبُّهُ وَيُرِيدُهُ أَمْ عَارِضٌ مَا يَحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ.

- هذا المثل ناقص، وذلك أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَعْلَمُ مُسَبِّقًا مَا سَيَفْعَلُهُ عِبِيدُهُ وَكَتَبَهُ سُبْحَانَهُ، وَمَا يَفْعَلُونَهُ بِكَامِلٍ إِرَادَتِهِمْ سَبَقَ فِي عِلْمِ اللَّهِ، وَأَدْنَىٰ اللَّهِ لَهُ أَنْ يَقَعَ فِي مَلِكِهِ، وَسَوْفَ يَجَازِي عِبِيدَهُ عَلَى أَفْعَالِهِمْ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرَ وَزِيَادَةً بِفَضْلِهِ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرًّا بَعْدَهُ إِنْ لَمْ يَتَفَضَّلِ اللَّهُ بِمَغْفِرَتِهِ.

- وماذا عن الآية التي تبين أَنَّ المصائب تقع بسبب الذنوب؟ واسمح لي لا أحفظ الآية.

- تعني قوله عز وجل: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ (٣٠) ﴿الشورى﴾ ٥.

- نعم.

- هذه الآية تبين سبباً رئيساً لوقوع المكروه على العبد وهو الأكثر ولا تعارض، فكله يقع بإذن الله، كما تعلم تقع المصيبة تكفيراً أو تمحيصاً، فالله تبارك وتعالى يمحص المؤمنين ويطهرهم ويرفع درجاتهم، تدبر قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمَّْا أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٦٥) ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٦٦) ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ (آل عمران)، وكذلك تدبر قول الله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ (١٤١) ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ (١٤٢) ﴿آل عمران﴾.

قاطعني:

- قوله عز وجل: ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ...﴾؟

- شعرت أنك ستسأل هذا السؤال، لقد علم الله هذه الأمور قبل وقوعها: ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ﴾ هنا أي: ليتحقق علم الله على أرض الواقع، لتروا أنتم علم الله فيكم، فالله عز وجل لا يعلم شيئاً جديداً، سبق علمه كل شيء قبل وقوعه، بل (ما لم يقع لو وقع يعلمه الله)، ثم تأمل قوله عز وجل: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (آل عمران)، فقول بعض الناس: لو أطاعنا فلان ولم يسافر لما وقع عليه هذا الحادث المميت، هذا القول يشبه قول الكفار؛ وذلك لأن من الإيمان بالقدر أن يؤمن العبد أن ما أصابه لم يكن ليخطأه وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

شمولية الإيمان بالقدر

- مشكلة كثير من الناس في قضية القدر أنهم يطبقون الإيمان بالقدر في موضع وينكرونه في موضع آخر.

- هذه عبارة مبهمة بيّنها جزاك الله خيراً.

هكذا بدأ الحوار بيني وبين شقيقي الأصغر، حين كنت في زيارة لوالدتي يوم الثلاثاء، وكانت والدتي ثالثتنا.

- مثلاً.. لا أحد يجلس في بيته ولا يبحث عن عمل ومصدر رزق ويقول: لو شاء الله لرزقني، فهو القائل في كتابه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (آل عمران) وغيرها من الآيات التي تدل على المعنى نفسه، بل كل عاقل يسعى في طلب رزقه ليرجع بما كتبه الله له من رزق، وكذلك لا أحد يتأخر عن الزواج والاقتران بامرأة ويرجو الذرية ويقول: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ﴾ (الشورى)، بل كل عاقل يسعى للزواج، ثم إن لم يُرزق بذرية يبذل كل الأسباب المادية لإزالة العوائق طلباً للذرية.

وهكذا ينبغي أن يكون الموقف في جميع قضايا القدر، بذل الأسباب لنيل المحبوب، ودفع المكروه، والإيمان بأن ما يتحصل بعد بذل الأسباب قد علمه الله قبل خلق السموات والأرض وكتبه، فالهداية مثلاً، كما في الرزق، لا ينبغي لأحد أن يبتعد عن أسباب الهداية ولا يسعى لها، ثم يقول: لو شاء الله لهداني، فهو القائل سبحانه في كتابه: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ

مُبَيَّنَتْ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٦٦﴾ (النور)، أو يتقاعس عن الطاعات ويتمادي في المعاصي والمنكرات، ويقول: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبْدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (النحل: ٣٥)، أو يقول في الحديث القدسي أن الله تعالى قال عن ذرية آدم: «هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي، وهؤلاء إلى النار ولا أبالي» السلسلة الصحيحة؛ بل يفعل مثل ما فعل في الرزق والذرية فيبذل أسباب الهداية، ويقرأ قوله الله تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ ﴿١٣﴾ (مريم)؛ فالهداية لها أسباب كما للرزق أسباب، والجنة لها طريق واضح بَيِّن، كما للذرية طريق واضح بَيِّن، وفي الواقع الحصول على الهداية والجنة أضمن من الحصول على الرزق والذرية.

استغرب صاحبي جملتي الأخيرة، وأظهر ذلك بتعابير وجهه:

- ماذا تعني؟

- أعني أن العبد قد يبذل أسباب الرزق ولا ينال الرزق الذي سعى له لحكمة أرادها الله، وقد يبذل أسباب الذرية ولا ينال الذرية، ولكن لا يبذل أحد أسباب الهداية الصحيحة ولا ينالها، وكذلك لا يبذل أسباب دخول الجنة ولا يدخلها، وبالطبع من الأسباب الدعاء وعدم الاغترار بالعمل، وعدم الايجاب على الله، بل الرجاء.

إن الإيمان الصحيح بالقدر يريح العبد ويبين له كل ما يحتاج في أمور دينه ودنياه؛ فيعيش مرتاح البال قرير العين، يتعامل بطريقة صحيحة في كل جوانب حياته.

مسؤولية العبد عن تصرفاته

لا شك أن العبد مسؤول عن جميع تصرفاته.. وسيحاسب عن كل عمل: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٨) (الزلزلة).

- وماذا عن الآيات التي تبين أن الشيطان هو الذي يغوي بني آدم وأنه سبب ضلالهم؟!

كان حوارني مع صاحبي ونحن في طريقنا إلى أحد المخيمات الربيعية بعد أن صلينا العصر وذلك لقضاء المساء مع بعض معارفنا الذين دعونا للعشاء بمناسبة فوز أحدهم في الانتخابات الفائتة.

- لا شك أن الشيطان سبب للإغواء.. كما الشهوات سبب للضلال.. كما الأخلاق السيئة كالكبر والحسد.. سبب للمعاصي.. ولكن العبد مسؤول عن نفسه.. ألا يخضع لهذه الأسباب.. ولذلك يتبرأ الشيطان من جميع من استجاب له: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٢) (إبراهيم)، فالشيطان يدعو إلى المعاصي.. وكذلك بعض الناس يدعو إلى المعاصي ويزينها.. والهوى أيضا يدعو إلى المعصية ويزينها.. والعبد يستجيب لهذه الدعوات أو يرفضها.. ويستجيب لدواعي

الخير والهداية.. فالقرآن يدعو إلى الخير.. وأهل الصلاح يدعونه إلى الهدى.. وهكذا هي حياة العبد.. ولكنه في النهاية هو المسؤول عن اختياره وهو الذي يحدد مصيره.. بما كسبت يده.

تركنا الطريق المعبد إلى طريق صحراوي.. اكتست الأرض بشيء من اللون الأخضر بعد موسم لا بأس به من الأمطار.

- وماذا عما يجري على العبد من مصائب لا دخل له بها.. كمرض عزيز وموت حبيب.. وغير ذلك من أمور تجري عليه.. يكرها؟!!

- لقد جعل الله الحياة الدنيا «دار ابتلاء».. فهو سبحانه الخالق.. وله الحق أن يبتلي من يشاء بما يشاء.. ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (الأنبياء)، ومع ذلك فهو سبحانه.. رحيم بعباده.. لطيف بخلقه.. بل هو أرحم بالعبد من الأم برضيعها.. ولم يخلق الله سبحانه الخلق ليعذبهم.. بل ليعبدوه، فإذا قضى الله على عبده قضاء فيما لا دخل للعبد به فقد أمره سبحانه وتعالى.. أن يعلم أن الذي قدر هذا الأمر هو الله سبحانه وتعالى.. وعليه أن يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه فيرضى بما قدره الله عليه.. لأن رضاه بذلك يُرضي الله عنه.. «فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط» السلسلة الصحيحة، ورضاه أو سخطه لا يغير مما وقع.. أو مما سيقع شيئاً.. ولكن الرضا فيه الأجر من الله.. والسخط فيه الوزر على العبد.

- هناك آية.. أظن في سورة النساء.. معناها.. ما أصابك من حسنة فمن الله؟!!

قاطعته: تعني قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِنْ تُضِبُّهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُضِبُّهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ۝٧٨ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ۝٧٩﴾ (النساء) ٥٩

- نعم.

- هذه الآية تبين المصدر والسبب فيما يقع على العبد.. في بدايتها.. أن لا مفر من الموت.. في المكان والزمان الذي كتبه الله عز وجل.. قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، فلا يظنّ ظانّ أنه إذا فرّ من الموت سينجو... بل ينبغي على العبد أن يتخذ أسباب النجاة من الهلاك ولكنه إذا مات.. فهذه قضية حتمية.. ثم يبين الله عز وجل.. موقف بعض اليهود والمنافقين الذين لا يتركون فرصة إلا ويلمزون رسول الله ﷺ.. والآية عامة وتطبق على كل من قال مقولتهم.. وذلك أنهم جعلوا الرسول ﷺ سبباً فيما يقع عليهم من مكروهات كالجدب والمرض.. يتشاءمون برسول الله ﷺ.. فأمر الله عز وجل رسوله أن يخبرهم بأن كل ما يجري عليهم مما يحبون أو يكرهون مصدره الله عز وجل.. ثم بيّن سبحانه وتعالى.. أن المكروه في الغالب يقع بسبب معاصي العبد.. كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ۝٢٠﴾ (الشورى)، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ۚ وَإِذَا

أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ، وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴿١١﴾ (الرعد)،
باختصار.. الله سبحانه وتعالى غفور.. رحيم.. لطيف.. رؤوف.. لا
يقضي على العبد ما يضره.. إذا آمن العبد بهذه الصفات.. وغيرها من
صفات الكمال لله عز وجل.. فإنه دون شك يرضى بقضاء الله فينال
الرضا من الله.. فيعيش مطمئناً في حياته.. مأجوراً في آخرته.

القدر واختيار العباد

من الآيات التي تبين جانباً من الإيمان بالقدر قول الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (القصص) ٦٨. وكذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (التغابن) ٢.

ونقل القرطبي كلاماً للزجاج وقال عنه: هو أحسن الكلام في هذه المسألة، ونصه: «إن الله خلق الكافر... وكضربه فعل له وكسب، وخلق المؤمن.... وإيمانه فعل له وكسب مع أن الله خالق الكفر والإيمان».

وهذا الذي عليه جمهور الأمة.

- وما الذي كتبه الله عز وجل.. وهو واقع لا محالة؟

كنت وصاحبي بانتظار ضيف لنا من مكة المكرمة.. تعرفنا عليه خلال موسم الحج الفائت ودعوانه حينها لزيارة الكويت.. هاتقنا قبل أربعة أيام ليخبرنا بموعد وصوله.

- الذي كتبه الله عز وجل هو علمه الذي أحاط بكل شيء.. فقد علم سبحانه من سيكون مؤمناً.. ومن سيكون كافراً.. وعلمه هذا لا يعلمه أحد من خلقه.. فلا يعلم أي منّا.. إن كان قد سبق في علم الله أنه سيموت مؤمناً أو كافراً.. ولذلك يسعى كل منا ويجتهد في الطاعات ليكون من أهل الإيمان.. وهذا معنى قول الزجاج: «الكفر فعل وكسب للعبد يصبح به كافراً، والإيمان فعل وكسب للعبد يصبح به مؤمناً..» فالعبد هو الذي يكسب العمل.. كما قال تعالى في سورة الإنسان:

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (٢) ﴿(الإنسان).. أي بينا له الطريق.. وهو الذي اختار... أن يكون شاكرًا.. أو اختار أن يكون كفورًا.. وكل ذلك قد علمه الله عز وجل.. وكتبه.. ولنرجع إلى الآية التي بدأنا بها حديثنا.. من سورة القصص ف«الخيرة» من «التخير» وتستعمل بمعنى المصدر وبمعنى «المتخير».. قيل سببه.. قول الوليد بن المغيرة: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرَبَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (٢١) ﴿(الزخرف).. فالله سبحانه وتعالى.. بحكمته وعلمه يختار للعباد ما هو خير لهم.. فيختار الرسل من خيرة البشر «يصطفيهم».. وليس الأمر للمخلوقات.. وهذا مما اختص الله به.. فلا ينازعه أحد: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٢٣) ... وهكذا كل أمر كوني.. لا يشارك الله أحدٌ من مخلوقاته فيه.

ظهر على لوحة القدوم أن الطائفة وصلت.

- وبالطبع هذه الآية لا تعني أن العبد لا خيار له في أفعاله... فالواقع يكذب هذا بل العبد له كامل الاختيار؛ ولذلك هو مسؤول مسؤولية كاملة عن أفعاله.. ومحاسب عليها يوم القيامة.. ومجزى عليها.. هو لا خيار له فيما لن يسأل عنه: مولده.. لونه.. نسبه.. عمره... القضايا التي لا دخل له فيها.. إن قضايا القدر تدور بعلم الله.. الذي كتبه.. فتؤمن به... وعلى الأمور التي تقع علينا دون اختيارنا فنصبر على ما نكره ونشكر لنيل ما نحب.

وعلى أعمالنا التي نكتسبها... وهذه مسؤوليتنا وسنحاسب عليها.

الرضا بالقدر

- الرضا بالقدر ليس استسلاماً.. والفرق بين الرضا والاستسلام كالفرق بين التوكل والتواكل... إن أحدنا مأمور أن يرضى بقضاء الله وقدره.. وأيضا مأمور أن يتخذ الأسباب لإزالة ما يقع عليه من مكروه... وكله بقضاء الله عز وجل.

- ولكن النفس البشرية - في لحظات الضعف - ربما تتملل وتضجر من كثرة ما يصيبها من المكروهات.

- وهنا ينبغي على العبد أن يثبت على الإيمان... في لحظات الضعف والابتلاء كما قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (التوبة)... وكذلك قوله عز وجل: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (آل عمران)، وكذلك: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحديد).. وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلِيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ (العنكبوت).. ومعنى الآيات: حتى يتحقق علم الله فيكم وترونه رأي العين.. وإلا فكل ذلك قد علمه الله سابقاً.. ولا يضاف إلى علم الله الكامل شيء.. فالؤمن يتمسك بالإيمان ويلجأ إلى الله.. وكلما ازدادت الشدة.. ازداد إقبالاً على الله.. أما الآخر فقد وصفه الله عز وجل بقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ

اللَّهُ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ..
خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ (الحج).

كان صاحبي يناقشني ويبيده قصاصة من صحيفة يومية ذكرت
كاتبته عبارة «الاستسلام للقدر».

أراد صاحبي مزيد توضيح:

- وكيف يكون الرضا بالقدر.. ١٩.

- إسمع قول النبي ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم؛ فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط».
(السلسلة الصحيحة)... فالبلاء غالباً دليل خير.. والرضا نتدرب عليه..
بهدي من القرآن والسنة.. يصف الله عباده المؤمنين: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة).. فالعبد المؤمن يعلم أن لا شيء يقع إلا بإذن الله وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه.. ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة).. هذه عقيدة يؤمن بها المؤمن إيماناً راسخاً.. فإذا وقعت المصيبة.. قال بلسانه: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾... يذكر نفسه.. ويحيي ما كان يعتقد في قلبه.. ثم يحمد الله.. «الحمد لله على كل حال».. كما في حديث من قبض ولده.. فيكون جزاؤه.. «ابنوا لعبدي بيتا في الجنة وسموه بيت الحمد» السلسلة الصحيحة.

قاطعني:

- وماذا عن قول: «الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه»؟

- هذا القول لم أجده في كتب الحديث ولا يجوز نسبة الشر إلى الله كما قال ﷺ في دعائه: «والخير كله في يديك والشر ليس إليك...» (مسلم)، وعلى أية حال.. إذا نزل المكروه بالعبد.. صبر ولم يجزع.. ولم يسخط على قضاء الله ولا حتى بالكلام.. بل يصبر.. ويسترجع، ويسعى بكل ما أوتي أن يزيل ما وقع عليه - إن كان يمكن إزالته- ولا يستسلم ويضعف.. بل يستعين بالله ثم يستعين بمن يستطيع الاستعانة به من عباد الله الأحياء... ويتقوى على ذلك بذكر الله.. ويذكر نفسه.. أن الجزع لا يغير مما وقع شيئاً.. والسخط لا يرفع المصيبة.. بل يزيدا سوءاً.. فيتعامل «بإيجابية» مع المصيبة لتتحول إلى مصدر لكسب رضا الله... ومغفرة الذنوب.. وربما.. نيل الجنة.

الله قسم الأرزاق

إلتقيته دون سابق موعد في حفل زفاف ابن صديق مشترك لنا، كانت قد مضت قرابة العشر سنين منذ آخر لقاء بيننا.

بعد التحيات والأسئلة المعتادة، أخذنا جانباً هادئاً نسبياً.

- قرأت حديثاً لا أعرف مدى صحته، ولكن بدايته: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم» وبصراحة أعجبنى الحديث، فهل مر عليك من قبل؟!

- سبحان الله، كنت في حلقة علمية ألقاها أحد المشايخ الأفاضل الذين دعتهم وزارة الأوقاف، وتناول هذا الحديث، فعزمت على حفظه، ومتمته: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من أحب، فمن ضن بالمال أن ينفقه وخاف العدو أن يجاهده وهاب الليل أن يكابده فليكثر من قول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر» هذا النص ورد في السلسلة الصحيحة للألباني رحمه الله.

- هل هناك رواية عن ابن مسعود بالنص ذاته؟

- نعم... الحديث يرويه ابن مسعود عن رسول الله ﷺ، وفي بعض الكتب مثل صحيح الترغيب والترهيب يُروى موقوفاً على ابن مسعود رضي الله عنه والشاهد أن هذا الحديث يبين أن الله قسم الأخلاق بين العباد كما قسم الأرزاق، وحتى نفهم الموقف مما قسمه الله ينبغي أن نطبق هذا المعتقد على القضايا المادية الملموسة ونقيس عليها غيرها.

فنقول: الجميع يؤمن بأن الله قسم الأرزاق بين عباده، فلماذا لا يجلس هؤلاء في بيوتهم ويقولون: ما قسمه الله لنا سيأتينا ولو نمنا في بيوتنا ولم نسع في طلب الرزق؟ لا يقول ذلك عاقل، بل الجميع يسعى لطلب الرزق والاستزادة منه قدر ما يستطيع، بل السعي مطلوب ومأمور به: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (١٥) (المملك)، ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٠) (الجمعة)، وكذلك قضايا الأخلاق والإيمان، فمن رزقه الله أخلاقاً حميدة - وذلك أن من الأخلاق جبلياً ومكتسباً - ينبغي أن يحمد الله على الخلق الحميد ويستغله في كسب الثواب والأجر، أما الغالب من الأخلاق فهو من كسب ابن آدم؛ ولذلك يثاب عليه يوم القيامة، وثبت في الحديث: «ما من شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق» (صحيح الترغيب والترهيب)؛ فالعبد المؤمن يؤمن يقيناً أن الله كتب كل شيء من رزق، وهداية، وإيمان، وولد، وتوفيق في أمور الدنيا، ومع ذلك يسعى في طلب الرزق ويتزوج لطلب الولد، وينبغي عليه أن يجتهد في طلب الإيمان والهداية والصلاح؛ فيبذل الأسباب الشرعية لينال كل هذا مع اليقين أن الله قد كتبها سابقاً.

قاطعني:

- والجزء الثاني من الحديث؟

- قوله ﷺ: «إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي

الإيمان إلا من أحب».

هذه الحقيقة تريح العبد المؤمن، فإن كان يزعم أنه يريد أن يكون فيمن يحبهم الله، لا ينظر إلى أهل الدنيا، بل إلى أهل الإيمان؛ فلا يكون عنده حسد، ولا جشع، ولا حرص على متاع الدنيا.

ثم يختتم الرسول ﷺ حديثه بإرشاد المؤمنين إلى عبادة عظيمة وهي ذكر الله عز وجل؛ فإنه أثوب عند الله من إنفاق المال النافلة والجهاد النافلة والقيام النافلة، وهذا يصدقه حديث أبي الدرداء: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكارها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟» قالوا: بلى، قال: «ذكر الله» صححه الألباني.

عمر الإنسان ورزقه

- لا يستحدث شيء في علم الله عز وجل.

رغم أنني لا أحب الإطالة في حديث الهاتف، إلا أن صاحبي يناقشني أحيانا في قضايا فيمتد حديثنا إلى قرابة الساعة.

- في باب القدر.. نعلم أن الله كتب عمر الإنسان ورزقه، وشقي أم سعيد.

قاطعته: الحديث في البخاري عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «... ثم يبعث إليه الملك فيؤذن بأربع كلمات، فيكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد، ثم ينفخ فيه الروح...».

تابع حديثه: نعم.. هذا الحديث جاء بروايات أخرى، ونعلم أن ذلك كتب قبل خلق السموات والأرض، وأنه كان غيباً لا يعلمه أحد، ثم أنزله الله وأعلم به بعض ملائكته، وسؤالي: لقد كتب الله أن يموت شخص ما في لحظة ما من يوم ما، ولكن هل كتب أيضاً كيف يموت؟ أم إن هذا الشخص في اللحظة التي كتب الله عليه الموت قاد مركبته بسرعة كبيرة وتسبب الحادث في موته؟ أم ركب البحر فمات في اللحظة المحددة غرقاً؟

قاطعته: اقرأ قول الله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَأْسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (الأنعام).

علم الله أحاط بورق الشجر، وقطرات المطر، وحبات الرمل، وما

في أعماق الأرضين والمحيطات، وما فوق السموات، أحاط علمه بكل مخلوقاته وملكه: ﴿وَمَا يَعْرِزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (يونس)، وكذلك: ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ لَا يَعْرِزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (سبأ)، الله تبارك وتعالى علم كيف يتصرف كل منا، وكيف سيموت وأين ومتى، وهذا العلم كتبه في: ﴿كِتَابٍ مُبِينٍ﴾، فلا يحصل شيء لم يعلمه الله، وبذلك يكون الفهم الصحيح للآيات التي تبدو في ظاهرها أن الله «سيعلم» كقوله عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْأَلُواكَ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (المائدة)، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ (العنكبوت)، وقوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ (العنكبوت)، ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف).

هذه الآيات ومثيلاتها يفهم منها أن يتحقق علم الله السابق، فترونه أنتم، ويكون ماثلاً أمام أعينكم فتقام الحجة، وتعلمون ما كنتم تجهلون أنتم، فلا جديد ولا محدث يكون في علم الله عز وجل، وهذا معنى كمال العلم في حق الله سبحانه وتعالى.

الكتاب الذي يحاسب عليه العبد

- أليس الإيمان بالقدر أن نؤمن بأن ما كتبه الله واقع لا محالة؟
- بلى.. ولكن يجب أن نفصل في الأمر، وذلك أن كثيراً من الناس يستغل هذه العقيدة ليعتذر بها في «لوم القدر» على ما يرتكبه هو من معاصي وما يقصّر فيه من طاعات، وهذا إثم عظيم، يزينه الشيطان لكثير من الناس حتى يبقوا على ما هم عليه من الابتعاد عن الله عز وجل.

- وكيف لنا أن نفصل هذا الأمر؟

التقيت صاحبي لتناول عشاء خفيف بعد الصلاة الأخيرة، وقررنا السير على الأقدام إلى المطعم الذي يبعد عن مسجدنا كيلو متراً واحداً تقريباً.

- دعني أذكر لك آية ربما ليست في الموضوع، ولكن استغلها من لا يريد إخراج الصدقات، وذلك انطلاقاً من كلام الله عز وجل: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٦) (هود) فكان كموقف الكفار: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٤٧) (يس)، وهذا منهج أهل الضلال أنهم يستغلون آيات الله في البعد عن أوامر الله، ولنرجع إلى موضوعنا:

جاء في الحديث عن ابن عباس: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن

ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف» رواه أحمد والترمذي، وصححه الألباني.

هذه العقيدة يجب أن نؤمن بها إيماناً إيجابياً، بمعنى أن نتذكرها إذا وقع لنا ما لا نحب، وأصابنا ما لا يسر، وفقدنا من نعز، بعد أن نكون قد بذلنا الأسباب فنطمئن ولا نجزع، وتعيننا هذه العقيدة على الصبر والرضا، ولا ينبغي لعاقل أن يلوم القدر على معصيته، ويحتج بالقدر على ضلاله، وينسب كفره إلى الله تعالى.. سبحانه عما يقولون علواً كبيراً.. وهذا الأسلوب ليس بجديد كما أخبرنا الله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ (الأنعام)، وفي سورة النحل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبْدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾ (النحل)؛ فهذه حجة مردودة وعذر قبيح لا يُنجي صاحبه من العذاب.

- وكيف أحاور أحدهم بطريقة أخرى؟

- إسأله.. ما الذي كتبه الله عليك بعد ساعة؟ حاول أن تخالف ما تظن أن الله كتبه عليك، مثلاً إذا كان الله قد كتب عليك أن تكون في المكان (أ) اذهب إلى المكان (ب)، وإذا كان الله قد كتب أن تأكل الوجبة

(ج) كُلُّ الوجبة (د)، لا أحد يعلم ما كتبه الله، ولا يستطيعون، ما كتبه الله يعلمه العبد بعد أن يفعله بمحض إرادته، والذي يحاسب عليه العبد يوم القيام ليس ما كتبه الله عز وجل، بل ما يُسَطِّرُه الملك في كتاب جديد لم يكتب فيه شيء، بل الملك لا يكتب حتى يفعل العبد؛ ففي الحديث قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: إذا همَّ عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه، فإن عملها فاكتبوها سيئة، وإذا همَّ بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإن عملها فاكتبوها عشراً» مسلم. وهذا هو الكتاب الذي يحاسب عليه العبد يوم القيامة: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَشْورًا﴾ (١٣) أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ (الإسراء).

التعوذ من سوء القضاء

- هل كان النبي ﷺ يتعوذ من سوء القضاء؟
- الحديث الذي في البخاري: «إن النبي ﷺ كان يتعوذ من سوء القضاء ومن درك الشقاء ومن شماتة الأعداء ومن جهد البلاء»، وهو في صحيح مسلم أيضاً.
- لم يُخفِ صاحبي استغرابه:
- وكيف ذلك؟!
- لعلك تعني تعوذه ﷺ من سوء القضاء؟
- نعم.
- رافقني صاحبي في طريقنا للخروج بعد صلاة العصر.. وعادة نمشي معاً حتى نبلغ منازلنا.
- ألم يتعوذ النبي ﷺ من «الهم والحزن»؟ متفق عليه.. ألم يتعوذ من «الكسل والجبن والهرم»؟ البخاري.. ألم يتعوذ من «وعشاء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب في المال والأهل والولد»؟ مسلم.. ألم يتعوذ من «أرذل العمر»؟.. وكل ذلك من القضاء؟! وفي شرح البخاري.. «أن كل أمر يكره يلاحظ فيه جهة المبدأ وهو سوء القضاء، وجهة المعاد وهو درك الشقاء، وجهة المعاش وهو جهد البلاء».. فالأمراض من القضاء، والدعاء لإزالتها من القضاء أيضاً.. فنلجأ إلى قضاء الله لإزالة قضاء

اللَّهُ.. وفي الحديث: «لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر»، الترمذي- حسنه الألباني.

فالمقصود أن القدر لا يرد إلا بالقدر، فما كتبه الله قَدَرٌ... ودعاؤنا لرفعه أو رده قَدَرٌ.

قاطعني:

- أمّا رفع ما وقع فمفهوم... ولكن كيف منع وقوع ما قدره الله؟!
- ما قدره الله غيب.. لا يعلمه أحد.. ولا حتى الملائكة... فإذا نزل جزء مما قدره الله علمته الملائكة.. قبل أن ينزل إلى الأرض.. فإذا دعا العبد - وهذا أيضا مما قدره الله - ارتفع الدعاء فمنع نزول البلاء.
فكان الدعاء سبباً في رد البلاء قبل وقوعه وكلّه علّمه الله عز وجل قبل وقوعه.. فكتبه.

- وكيف في زيادة العمر.. وقد كتب الله آجال الناس فلا تزيد ولا تنقص؟!
تتقص؟!

- كلامك صحيح.. ذلك أنه إذا كان في علم الله أن فلاناً سيموت عن عمر سبعين سنة وأربعة أشهر وخمسة أيام وساعتين وسبع دقائق وعشرين ثانية.. فإنه لا يتقدم ولا يتأخر عن هذه اللحظة.. فتكون الزيادة المذكورة في الحديث بالنسبة لملك الموت ومن وكلّ معه من الملائكة بقبض الأرواح.. وهذا معنى قول الله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّىٰ عِنْدَهُ. ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ (الأنعام)..

وكذلك قوله عز وجل: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ ۖ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (الرعد) ٢٩. فأشار سبحانه عز وجل في آية الأنعام إلى أجلين: الأول ما علمه ملك الموت الذي ربما يتغير بأعمال البر.. فيمحو الله هذا الأجل ويزيده عند ملك الموت ليوافق الأجل المكتوب في اللوح المحفوظ.. ففي شرح الترمذي: «الحاصل أن القضاء المعلق يتغير، وأما القضاء المبرم فلا يبدل ولا يتغير».. وهذا ما يسميه العلماء تدافع الأسباب أو معالجة الأقدار بالأقدار.. أي إنك تدفع قدراً بقدر ليثبت في النهاية ما كتبه الله عز وجل في اللوح المحفوظ.

الصبر على المصائب

- عندما أقرأ الآيات التي تذكر المصائب، أشعر أنني لا أفهمها فهماً صحيحاً.

- هل لك أن تذكر لي أمثلة؟!

- مثلاً قول الله عز وجل: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة)، وقوله عز وجل: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ (الشورى)، وقوله سبحانه: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَاهَاً إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (الحديد)، وقوله سبحانه: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (التغابن).

كان يقرأ هذه الآيات من قصاصة أخرجها من جيبه العلوي.. انتهى.

- هذه الآيات كلها متناسقة متحدة المعنى، وأود أن أضيف آية أخرى، بل آيتين من سورة النساء: ﴿أَتَيْنَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ (٧٨) ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (٧٩) (النساء).

هذه الآيات تبين أسباب وقوع المكروه للمؤمنين، والسبب الأهم لأي

مصيبه هو الذنوب، كما في آية الشورى، وذلك أن المؤمن ربما تُعجل له العقوبة على الذنب الذي لم يتب منه في الدنيا ولا يعاقب عليه في الآخرة، ولا شك أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وجاء في المستدرک على الصحيحين: عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصاب ذنباً في الدنيا فعوقب به، فالله أعدل من أن يثني عقوبته على عبده، ومن أذنب ذنباً فستر الله عليه وعفا عنه فالله أكرم من أن يعود في شيء عفا عنه» قال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وهذا الفهم كان عند الصحابة - رضوان الله عليهم - بأن أحدهم يُرجع ما يصيبه إلى تقصيره في حق الله عز وجل، والله سبحانه لا يؤاخذ على جميع الذنوب، بل يعفو عن أكثرها، كما في آية الشورى التي ذكرتها، وذلك من رحمته وعفوه وكرمه سبحانه، والله عز وجل قد سبق في علمه كل ما سيكون وكتبه، فلا شيء جديد في علم الله كما في آية الحديد، ولا يقع شيء في ملك الله عز وجل إلا بإذنه، فلا ينبغي للعبد أن يتذمر من مكروه أصابه أو مصيبة وقعت له، بل يصبر ويرضى بقضاء الله عز وجل.

قاطعني: وماذا عن الآيتين في سورة النساء؟

- هاتان الآيتان تذكران حالة فئة من المنافقين، هلعوا عندما أمروا بالجهاد، فأخبرهم الله أن الموت يأتيهم وإن تحصنوا في بروج مشيدة، وكانوا ينسبون وقوع المكروه إلى النبي ﷺ، فكذبهم الله عز وجل بأن كل شيء خلقه الله وأن المكروه يقع على الإنسان بسبب ذنوبه، فمع أن المخاطب هو الرسول ﷺ، إلا أن المراد أمته من بعده.

ولقد حذر الله المؤمنين من أن يقعوا فيما وقع فيه الكفار: ﴿يَتَأْتِيهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ
كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ
وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾﴾ (آل عمران)، فالمؤمن وإن
وقعت عليه أعظم مصيبة وهي الموت رضي بقضاء الله ويعلم أنه لم يكن
لهذا الأمر أن يتأخر أو يتقدم وأن السبب لا قيمة له؛ فيرضى بقضاء الله
لأجل أن ينال الرضا من الله.

لماذا الدعاء؟

بلغت باب المسجد قبل الأذان بخمس دقائق.. إلتقيته خارجاً من المسجد مشمراً عن ساعديه يريد تجديد وضوئه.. إستوقفني:

- لدي استيضاح في قضية القدر..

تابع حديثه دون أن ينتظر ردة فعلي:

- إننا هذه الأيام نقنت في كل صلاة ندعو لإخواننا في بلاد الشام أن يفرج الله همّهم وينصرهم على من ظلمهم وسفك دماءهم، والله عز وجل يعلم ما ستؤول إليه الأمور.. فلماذا ندعو نحن؟!... ودعاؤنا لن يغير ما كتبه الله عز وجل؟!!

- هذا السؤال يخطر على بال كل منا... لا في قضية إخواننا المسلمين المستضعفين في بلاد الشام، بل في قضايا كثيرة، ولا سيما إذا كان الأمر لا يتعلق بنا.. وحتى أوضح لك الأمر.. هل تستطيع أن تقول: لماذا أدعو لابني بالشفاء العاجل وزوال مرضه العضال... وقد سبق في علم الله ما سيؤول إليه الأمر؟! لا تقول ذلك وإنما تستمر بالدعاء رجاء أن يستجيب الله لك ويشفى ابنك.. هل تستطيع أن تقول لنفسك: لماذا أخرج وأجتهد في طلب الرزق... وأحرص على اتخاذ القرار الصحيح في البيع والشراء للأسهم في البورصة وقد سبق في علم الله إن كنت سأربح أو أخسر في تجارتني؟!!

(بوفهد) من رواد المسجد المواظبين على جميع الصلوات وكثيراً ما

يمكث بين المغرب والعشاء في المسجد يقرأ القرآن.. متقاعد يتعامل بالبورصة ويعرف الكثير من أسرار الأسهم فهو مرجعنا في البيع والشراء.

- هذه الأمور لا بد أن أجتهد فيها وأبذل الأسباب من المتابعة والسؤال والبحث حتى أحقق أرباحاً في بيعي وشرائي.

- سؤالي: لماذا تفعل ذلك وقد سبق في علم الله وكتب الله ما سيؤول إليه أمرك؟!

أجابني مستغرباً: لا بد من بذل الأسباب لنيل المطلوب.

- هذه التي أردت.. لا بد من بذل الأسباب.. ومن أعظم الأسباب التي يجب أن يبذلها العبد لينال مطلوبه أن يدعو الله عز وجل... في كل شيء بل الله أمر عباده بدعائه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر)..

فالدعاء عبادة يحبها الله وهي أعظم سبب لنيل المراد... والنبي ﷺ كان يدعو بالنصر لجنوده ويدعو للاستسقاء ويدعو لنفسه، وكان أكثر دعائه: «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار» البخاري.. وكان يدعو عند الكرب: «لا إله إلا الله العظيم الحليم لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم»، متفق عليه.. فالدعاء أقوى سبب.. ومن لم يدع الله عز وجل فقد ترك سبباً أساسياً لنيل المطلوب.. في جميع الأمور.. إذا أردت لابنك أن ينجح.. مرّه فليدرس.. وليدعُ

اللَّهُ عز وجل أن يرزقه التفوق والنجاح.. وإذا أردت أن ترزق الذرية..
فابذل الأسباب وادعُ الله أن يرزقك الذرية الصالحة.. وإذا أردت
سعة الرزق.. فاسع في طلبه وادع الله أن يرزقك رزقاً طيباً واسعاً..
وإذا أردت النصر للمسلمين المستضعفين على الظالمين - كما في بلاد
الشام - فأعن إخوانك بما تستطيع وادعُ لهم.. واعلم يقيناً أن الدعاء
ينفع.. ويستجيب الله لمن يدعو صادقاً.. والدعاء أيضاً من القدر..
ومما كتبه الله عز وجل.

أحداث الكون بأمر الله

- وماذا عن القدر في أحداث الكون... وما يصيب البشرية عامة؟!
- لا شيء يقع في الكون إلا بأمر الله... حدوث الزلازل... هبوب العواصف... انفجار البراكين... فيضانات الأنهار... انهيار الثلوج... جفاف المواسم... لا شيء على الإطلاق... وهذه الأمور يحلو لبعضهم أن يسميها «غضب الطبيعة» ولا شك أن هذه التسمية خاطئة؛ فليس للطبيعة أن تغضب أو ترضى... إنها مخلوق يأتmer بأمر الله... هذه الأمور كلها تقع بحكمة الله عز وجل... أحياناً عقاباً... وأحياناً إنذاراً... وأحياناً تخويفاً... وأحياناً دعوة للناس وتذكيراً.

- وماذا عن الموقف حيال هذه الأمور؟!

- لقد بين النبي ﷺ ما يجب على الأمة عمله في مثل هذه الحالات.. ففي الحديث عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال: «يا معشر المهاجرين، خمس إذا ابتليتم بهن - وأعوذ بالله أن تدركوهن - لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم يُنقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله ﷺ إلا سَلَطَ الله عليهم عدواً من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا مما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم»، حسنه الألباني.

ففي هذا الحديث ربطٌ بين بعض الذنوب التي إذا تفشت في الأمة نزل العقاب العام: «أخذوا بالسنين»... أي أصابتهم المجاعة.

قاطعني: ولكن هذه الأمور كلها أو معظمها واقع من الكفار؟!

- إن الله إذا عجل العقوبة للمؤمن في الدنيا فإن ذلك أهون عليه من عذاب الآخرة... وربما كان هذا العقاب عبرة له فيرجع عن معصيته، أما الكافر فإن عقابه ربما تأجل إلى يوم القيامة... فلا يعاقب في الدنيا.. والعقاب هناك أشد وأبقى... وعلى أية حال.. إذا نزل العقاب أو تأجل فإن ذلك لحكمة يريد بها الله عز وجل.. وفي كتاب الله أمثلة على ما يصيب الأمم بسبب الذنوب.. أو ينالها من خير بسبب الطاعات، اقرأ قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (النحل، ١١٢) وكذلك قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ (الأنعام، ٦) وقوله سبحانه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝١١﴾ (نوح).

وذكر لنا ربنا ذنوب بعض الأمم السابقة.. مثل عاد وثمود وقوم لوط وما حل بهم بسبب ذنوبهم.. وذلك حتى نتعظ ونعتبر.

- وماذا عن الدراسات الحديثة التي تتبأ بالأعاصير والبراكين والأمطار وغيرها؟!

- إن الله إذا أراد أمراً حصل.. ويجعل له من الأسباب الدنيوية ما يحدثه... مثلاً تفاوت درجات الحرارة بين الأسطح المائية والهواء ثم اليابسة يكون سبباً في حدوث الأعاصير وانخفاض الضغط الجوي يجلب السحب والأمطار... والإنسان يراقب ويعيش ويتجنب... ولكن لا يستطيع أن يفعل شيئاً حيال هذه الأمور وكلها بأمر الله.

- وما الموقف الشرعي حيالها؟!

- الرجوع إلى الله... وبالطبع الماديون لا يعترفون بالأسباب الشرعية لهذه الأمور.. ولكننا بفضل الله نعلم أن هناك أسباباً غيبية وعلى يقين بأن الأمر ليس مادة فحسب وإنما الله سبحانه هو الذي خلق هذه المادة ويسيرها وفق حكمته.. وبأمره عز وجل.. فشرع لنا صلاة الاستسقاء... والاستغفار والتوبة حال الجفاف.. واللجوء إلى الله حال الكوارث... لأنها لا تقع صدفة.. تعالى الله سبحانه أن يقع شيء في ملكه عبثاً.. بل بتدبير الله وأمره... وهنا يتميز المؤمن عن غيره.

ألفاظ مخالفة للعقيدة

- كثير من الأعمال الأدبية تستخدم ألفاظاً مثل: (سخرية القدر)، و(ظلم القدر)، و(جبروت الأقدار)، و(لعبة الأقدار)، ولا شك أن هذه المصطلحات وأشباهها تخدش الإيمان، ومن اعتقدها ربما ينقض إيمانه.
- لا شك أن هؤلاء لا يقصدون المعنى اللفظي لهذه العبارات.
- وإن كان، ففي العقيدة حتى التجاوز اللفظي ممنوع، ألا تذكر حادثة ذاك الأعرابي الذي قال: «ما شاء الله وما شئت يا محمد»، فأرشدته الرسول ﷺ إلى شدة خطأ هذه العبارة، فقال: «أجعلتني لله عدلاً، قل ما شاء الله وحده» (أحمد) (الأرنؤوط: صحيح لغيره)، ففي قضايا العقيدة يجب مراعاة الألفاظ؛ لأن التجاوز فيها يخدش التوحيد، الذي هو حق الله الذي يجب أن يؤدي كاملاً.
- وماذا عن بعض الألفاظ الأخرى التي تخدش التوحيد؟
- الألفاظ كثيرة، ولذلك يجب على المؤمن أن يحذر فيما ينطق، مثل: (سب الدهر) ففي البخاري: قال الله عز وجل: «يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر، وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار»، فلا ينبغي لأحد أن يلعن ساعة أو يوماً أو شهراً؛ لأن ما حدث في هذه الأزمنة إنما حدث بأمر الله.
- صاحبي متابع جيد للأنشطة الأدبية، وهو عضو في رابطة الأدباء ولا تفوته فريضة في المسجد.
- إن الإيمان بالقدر يجعل المرء مرتاح البال، قريح العين، طيب النفس،

لا يجزع ولا يخاف ولا يهلع مهما نزل به من مصاعب ومهما أصابته من مشكلات.. اسمع حديث النبي ﷺ: «أحرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا، كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان»، مسلم وفي رواية ابن ماجة: «فإن غلبك أمر...»، وهذه «لو» الحسرة على أمر قد وقع، كما في قوله عز وجل مخبراً عن الكافرين: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾﴾ (آل عمران)، هذه هي الـ«لو» المنهي عنها، أما «لو» التخطيط للمستقبل والبيان في الكلام فلا شيء فيها، كما قال النبي ﷺ في الحج، وقد ساق الهدى من المدينة: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي ولحللت مع الناس حين حلوا» البخاري.

وكما قالت عائشة في غسل النبي ﷺ بعد وفاته: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما غسله إلا نساؤه» أبو داود، وأحمد.

- حقاً إذا فهم المرء أمور العقيدة بطريقة صحيحة يرتاح باله وتزول شكوكه.

- من هنا قال العلماء: إن العلم الواجب خير من العبادة الواجبة، والعلم النافلة خير من العبادة النافلة «العلم الصحيح يحفظ للمرء دينه وعباداته».

الخلاصة

الآن وقد قضينا قرابة ستة أسابيع نتحدث عن العقيدة في القدر، نريد أن نخرج بخلاصة قصيرة جامعة مانعة.

الأمر ليس بهذه السهولة، ولكن ربما نستطيع أن نضع لأنفسنا بعض القواعد التي إن إلتزمناها بقينا على قصد السبيل، وهي:

- الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان، من أنكره هدم دينه.
- علمُ الله أحاط بكل شيء قبل خلق السموات والأرض، وأمر الله القلم أن يكتب هذا العلم.
- خَلَقَ الله كل شيء في الكون، والمرء يختار الخير فيوفقه الله، أو يختار الشر فيتركه الله لاختياره.
- أذن الله أن يقع في ملكه ما لا يحبه من شر ومعصية؛ فإنه لا يقع في الكون شيء إلا بإذن الله.
- لا نستشهد بآية واحدة أو حديث واحد لإثبات قضايا القدر، بل نجمع جميع الآيات والأحاديث، فإنها يبين بعضها بعضاً ولا تعارض بينها مطلقاً.
- العبد مسؤول مسؤولية كاملة عن تصرفاته وسوف يحاسب عليها بين يدي الله.
- الإيمان بالقدر يستوجب الرضا بما يجري على العبد مما لا يحب.

استوقفني صاحبي قبل أن أذكر النقطة التالية:

- أظن أن أحدنا يحتاج أن يذكر نفسه دائماً بالقدر، فما الأذكار المتعلقة بهذا الأمر التي تعين المرء على الرضا بقضاء الله؟!

لاشك أن معظم السخط إنما يكون حال المصيبة؛ ولذلك يذكرنا الله في كتابه بما يجب أن نقول بألسنتنا: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة) وكذلك قوله عز وجل: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة)، وقول النبي صلى الله عليه وسلم حين فقدان عزيز: «إن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمى» متفق عليه.

ومما يعين العبد على الرضا بما قضاه الله عز وجل أن يذكر نفسه بأسماء الله الحسنی وصفاته العلاء، فهو اللطيف، الرحيم، الحكيم، الغفور، العليم، الودود، فاقراً مثلاً قوله عز وجل: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ (الشورى)، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الملك)، ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ﴾ (البروج)، ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الحديد)، فالله سبحانه وتعالى خلق الخلق، وهو أرحم بهم منهم بأنفسهم، وهو لطيف بعباده، رحيم بهم، يدبر الأمور بحكمته سبحانه؛ فربما وقع على العبد ما يكره وهو خير له، كما في آية القتال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ

شَرُّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ (البقرة)، فمن آمن يقيناً بأسماء الله وصفاته، أيقن أن ما قضاه الله عليه خير له، ويذكر نفسه دائماً أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، ويدعو الله دائماً، فإن الدعاء جزء من الإيمان بالقدر وهو من القدر وينفع مما وقع ومما لم يقع.

تم بحمد الله

فهرست الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١	المقدمة	٥
٢	أركان الإيمان بالقدر	٩
٣	المغفرة والعذاب	١٢
٤	الهداية	١٥
٥	الهداية (٢)	١٨
٦	عمل الإنسان	٢٠
٧	عمل الإنسان (٢)	٢٣
٨	عمل الإنسان (٣)	٢٦
٩	أفعال العباد	٢٩
١٠	الأخذ بالأسباب	٣٢
١١	القضاء	٣٥
١٢	ولو شاء الله	٣٨
١٣	العمل سبيل النجاة	٤١
١٤	يدبر الأمر	٤٤
١٥	لا شيء يقع إلا بإذن الله	٤٧
١٦	شمولية الإيمان بالقدر	٥٠
١٧	مسؤولية العبد عن تصرفاته	٥٢

تحقيق الإيمان بالقدر

١٨	القدر واختيار العباد	٥٦
١٩	الرضا بالقدر	٥٨
٢٠	الله قسم الأرزاق	٦١
٢١	عمر الإنسان ورزقه	٦٤
٢٢	الكتاب الذي يحاسب عليه العبد	٦٦
٢٣	التعوذ من سوء القضاء	٦٩
٢٤	الصبر على المصائب	٧٢
٢٥	لماذا الدعاء؟	٧٥
٢٦	أحداث الكون بأمر الله	٧٨
٢٧	ألفاظ مخالفة للعقيدة	٨١
٢٨	الخلاصة	٨٣